يائير فالاخ*

رايات موسم النبي موسى: سجلّ اختفاء**

يعالج يائير فالاخ في مقالته هذه، مسألة رايات موسم النبي موسى واختفائها، كجزء من دراسة للمشهد النصّيّ العربي والعبري في القدس خلال الفترة ١٨٥٨ ـ ١٩٤٨، والاعتبارات التي دفعت سلطات الانتداب البريطاني إلى صناعة المشهد الفلسطيني عبر الكتابة والنصوص، كآلية لتحقيق أهدافها السياسية.

عند التحدث عن اللغة المكتوبة نفكر عادة في الكتب والصحف، لكن ربما كان معظم النصوص التي نقرأها يومياً موجوداً في الحيز العام كإعلانات ولافتات وغرافيتي، ويمكن أن نصف تلك النصوص بـ "مشهد نَصِّيّ" (textual landscape). والحديث هنا هو عن اختفاء رايات النبي موسى كجزء من دراسة للمشهد النصِّيّ العربي والعبري في القدس خلال الفترة ١٨٥٨ ـ ١٩٤٨.[١]

تنطلق هذه المقالة من الافتراض أن لافتات الشوارع، والغرافيتي، والنقوش الإسلامية واليهودية في المساجد والكنس، والإعلانات، والنصوص المنقوشة على القطع النقدية والمطبوعة على العملات الورقية، تشكّل مشهداً نَصِّيّاً واحداً وشاملاً، وجزءاً من الثقافة المرئية والمادية، فالكتابة ليست مجرد كلمات، بل هي أيضاً وجود مادي مصنوع من المعدن والقماش والحجر والورق. وعندما نبحث في دور اللغة في الحيز العام، فإن علينا أن ندرك أن اللغة نفسها ليست ثابتة، وأنها تتحول بتغير السياق التاريخي، ويمكننا أن نقدم

* محاضر في الدراسات الإسرائيلية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، في جامعة لندن. يركز بحثه على الحداثة كما تظهر في الحضارة العمرانية والثقافة المرئية في فلسطين / إسرائيل، من القرن التاسع عشر حتى وقتنا الحاضر، وبما يشمل المجتمعَين العربي الفلسطيني واليهودي. وقد كتب عن الخرائط كرموز وطنية في المجتمعَين الفلسطيني والإسرائيلي، وعن الاستخدام الاستعماري البريطاني للعملات النقدية ولطوابع البريد كأدوات دعاية، وعن حيز مشترك وعزل حضري في القدس.

** المقالة أصلاً محاضرة بالعربية أُلقيت في مؤتمر "العربية لغة في عين العاصفه"، الذي أقيم في معهد فان لير في القدس في ٩ / ١١ / ٢٠١٢، ونظمه كل من المركز العربي للحقوق والسياسات / "دراسات"، ومعهد فان لير. وأريد أن أشكر زميلتي الدكتور نجاة عبد الحق على مساعدتها في تصحيح البروفات في النص العربي الأصلي للمحاضرة، وكذلك هيئة تحرير "مجلة الدراسات الفلسطينية" على التدقيق اللغوي والتحريري.

رايات النبي موسى خلال الاحتفال بالموسم في ٢ / ٤ / ١٩٢٠.
المصدر: مكتبة الكونغرس، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.loc.gov/pictures/item/mpc2004000534/PP/resource/

قراءة جديدة لتأريخ فلسطين الحديث من خلال تلك النصوص المنسية، والحديث هنا هو عن مصير أعلام احتفالات النبي موسى خلال الانتداب، وكيف تحولت من رموز دينية مقدسة ومحترمة، إلى رموز وطنية خطرة وممنوعة، وفي النهاية إلى آثار مهملة ومنسية.

كان موسم النبي موسى أهم مهرجانات جبل القدس منذ العصور الوسطى حتى النكبة، وكان يُحتفل به في كل عام لأسبوع كامل في نيسان / أبريل، وكان الزوار يصلون من نابلس والخليل إلى القدس، ويذهبون بعدها إلى مقام النبي موسى بالقرب من أريحا، وبعد عدة أيام كانوا يعودون إلى القدس ثم إلى مدنهم، وقد ورد وصف الموسم لدى الباحث توفيق كنعان،[٢] والمؤرخ كامل العسلي،[٣] وغيرهما. وكان لكل مجموعة من الزوار علم خاص بها مطرّز بنقوش عربية، وفي رأس الموسم كانت مجموعة أعلام الأعيان المقدسية، وأهمها علم النبي موسى الذي احتفظ به تقليدياً مفتي القدس الذي كان من آل الحسيني. وكان علم النبي موسى الركيزة الأساسية للموسم، وكانت جميع الاحتفالات تدور حوله من انطلاق الموسم إلى نهايته. ولتوصيف سيطرة آل الحسيني على العلم واحتفالات الموسم، يمكننا أن نستخدم مصطلح "هيمنة نَصِّيّة" (textual domination)، الذي تحدث عنه الباحث الأميركي برينكلي في كتابه "الدولة الكاليغرافية: الهيمنة النصّيّة والتاريخ في مجتمع مسلم"،[٤] فقد عكست سيطرة آل الحسيني على البيرق الفريد ـ أهم الأعلام في فلسطين ـ مكانة العائلة في المجتمع

الفلسطيني العثماني، كأصحاب مناصب عليا مثل مفتي القدس ورئيس بلديتها.

فحصت الفنانة فيرا تماري بعض الأعلام الموجودة في متحف الحرم الشريف، وتأكدت من أنها صُنعت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر من قماش مخملي ونقوش مطرّزة بخيوط ذهبية.[٥] والنصوص المنقوشة على الأعلام كانت بطبيعة الحال نصوصاً قصيرة من آيات القرآن الكريم، وشعارات التوحيد والتكبير والإشارات إلى الخلفاء والأنبياء والأولياء، وقد اعتبر المستشرقون هذه النقوش "نقوشاً تافهة" (banal inscriptions)، بمعنى أنها لا تزودنا بأي معلومات تاريخية محددة، لكن كما نعرف فإن هذه النقوش "التافهة"، هي مكوّن جوهري في المشهد النصّيّ العربي الإسلامي. وأعلام النبي موسى تشبه أعلام مواسم أُخرى في فلسطين (النبي صالح والنبي روبين)، وتشير إلى تقليد إسلامي قديم يقوم باستخدام الأعلام المطرزة، والقماش المنقوش الذي له مكان مركزي ومهم في الثقافة المرئية الإسلامية.

بعد الاحتلال البريطاني لمدينة القدس في سنة ١٩١٧، قرر ضباط الحكم العسكري رعاية موسم النبي موسى بشكل رسمي من خلال مشاركة فرقة موسيقية عسكرية وحرس شرف، وكان منطقهم أن رعايتهم للموسم تشكل تواصلاً مع سياق الحكم العثماني، وتطمئن أهالي فلسطين إلى احترام التقاليد الإسلامية من جانب الجيش الأوروبي المحتل. وكما لاحظ الباحث سليم تماري، فإن هذا الاهتمام بالموسم عبّر عن

حاكم القدس البريطاني إدوارد كيث روش، يشرف على تسليم راية موسم النبي موسى عند باب السلسلة في القدس القديمة خلال موسم سنة ١٩٤١، ويبدو خلفه المفتي الحاج أمين الحسيني.

المصدر: مكتبة الكونغرس، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.loc.gov/pictures/item/mpc2010006749/PP/resource/

رؤية بريطانية للمجتمع الفلسطيني كمجتمع متديّن وتقليدي يتألف من طوائف دينية، وليس كشعب له طموحات وطنية. وكما وصف الباحث عواد حلبي، فإن الاستعمار اعتبر الموسم فرصة لإقامة تفاهم وتسوية موقتة مع الأعيان المقدسية، من أجل احتواء مقاومة الفلسطينيين للانتداب ولسياسات وعد بلفور.[٦] وبعد ثورة النبي موسى في سنة ١٩٢٠، قرر الانتداب تعزيز دور الأعيان وآل الحسيني، من خلال تعيين الحاج أمين الحسيني في منصب المفتي الأكبر لفلسطين وكرئيس للمجلس الإسلامي الأعلى، وكان الموسم، مثلما يقول حلبي، امتحاناً سنوياً لقدرة الحاج أمين على احتواء الغضب الشعبي ضد الانتداب وسياساته الداعمة للصهيونية.

وفي إطار رعايتهم للموسم، اهتم البريطانيون بصورة خاصة بموضوع الأعلام. وكما نشهد في شريط لفيلم دعاية بريطاني في سنة ١٩١٩، فإن حاكم القدس رونالد ستورز أدى دوراً بارزاً في افتتاح المهرجان. ففي أول يوم من الاحتفالات، كان ستورز يستقبل راية النبي موسى المقدسة في مكتبه، وينشر الراية وينصبها على زانة، ويعلّق هلالها أمام الكاميرا وأمام رئيس بلدية القدس ووجهاء المدينة.[٧]

ولم يكن الاهتمام بالأعلام المطرزة حالة استثنائية، وإنما كان مثالاً لاهتمام بريطاني بارز وواسع بمسألة النص في فلسطين. فموضوع الكتابات على الطوابع، كان من أول قرارات المندوب السامي هربرت صموئيل، وكذلك قانون الإعلانات الذي كان أول قانون للانتداب، وذلك بهدف السيطرة على الإعلانات في المدن والطرق، وأيضاً مبادرة صموئيل وستورز إلى تسمية شوارع القدس مع وضع إرشاديات لها.[٨]

وأهم القرارات كان تحديد سياسة اللغات الانتدابية، والاعتراف بالإنجليزية، والعربية، والعبرية كثلاث لغات رسمية لفلسطين، وبهذا الترتيب. وكان هذا النموذج النصِّيّ المثلث أشبه بعلامة تجارية للانتداب، وظهر على النقد، والطوابع، والمستندات الرسمية، وعلامات الطرق في المحافظات التي كان فيها أقلية يهودية فوق ١٠٪. ويبدو هذا الاهتمام زائداً وغريباً، مقارنة بالمشكلات والتحديات التي واجهت الانتداب في فلسطين. وكان أبرز التحديات الرفض العربي للانتداب، والمقاومة العنيفة للهجرة والاستيطان الصهيوني، وفي المقابل الضغط الصهيوني لتسريع تطبيق وعد بالفور. وأمام تلك التحديات الخطرة، كيف يمكن شرح اهتمام المسؤولين البريطانيين بلافتات الشوارع في القدس، وبالإعلانات التجارية وبمراسم أعلام احتفالية؟ وكيف نفسر هذا الهوس البريطاني بمسألة النص؟

وتحليلي لهذا الهوس هو أن السلطة الاستعمارية لاحظت فرصة لصناعة المشهد الفلسطيني عبر الكتابة والنصوص، كآلية لتحقيق أهدافها السياسية. وكان أول هدف، طبعاً، ما سُمي "الالتزام الثنائي": تطوير البيت القومي لليهود، مع الحفاظ على الحقوق المدنية والدينية لمواطني فلسطين. وهذه السيطرة على الكتابة أعطت البريطانيين آلية دقيقة، بل قوية للتدخل في الحيز العام الفلسطيني من أجل إعادة تشكيله، ومكّنتهم من تعزيز المشروع الصهيوني (من خلال الاعتراف بالعبرية كلغة رسمية) من جهة، ومن جهة ثانية اتخاذ خطوات لحفظ الثقافة العربية، مثل احترام أعلام النبي موسى.

غير أن خطورة هذه السياسة كانت تكمن في إمكان استخدام النص من جانب عناصر

مستقلة ضد سياسات الاستعمار. وبات خطر النص الفوضوي والتخريبي يُقلق ضباط الانتداب، ولذلك كان من الضروري أن يسيطر الانتداب على الكتابة في الحيز العام، كي لا تتمكن أي عوامل أُخرى من كتابة المشهد بصورة تعطّل المصالح الانتدابية. واعتبرت سلطات الاستعمار الكتابة غير المسموح بها كتهديد، وحاولت حظرها حتى لو كانت لافتات سياسية عربية، أو غرافيتي عبرياً للزوار اليهود في حائط المبكى، وبالتالي تحولت أعلام الموسم من فرصة إلى خطر

وهكذا نرى أنه في سنة ١٩٢٠ شهدت احتفالات موسم النبي موسى الثورة العربية الأولى ضد الانتداب، فلدى وصول أهل الخليل مع أعلامهم إلى باب الخليل بدأت اشتباكات عنيفة استهدفت محلات اليهود في البلدة القديمة. وكان سبب الاشتباكات، وفق الشهادات أمام لجنة التحقيق البريطانية، شائعة فحواها أن يهودياً بصق على راية إبراهيم الخليل.[٩] وبعد الثورة أدركت سلطات الانتداب أن الاحترام الديني لا يكفي لاحتواء المقاومة العربية، واتخذت إجراءات حذر واعتبرت الأعلام خطراً، لأن رفعها كان يمكن أن يحرك الجماهير. ووُصفت الأعلام في مراسلات البريطانيين بأنها رموز خطرة ربما تثير عواطف وطنية ودينية، ذلك بأن الموسم في العشرينيات تحوّل من مهرجان شعبي توفيقي بمشاركة يهود القدس، إلى تظاهرة وطنية سنوية ضد الانتداب. وشددت الشرطة السيطرة على الأعلام، وحددت توقيت نشرها وعرضها، وقررت ما هو المسموح منها وما هو الممنوع.[١٠] وبعد اندلاع الثورة العربية الكبرى في سنة ١٩٣٦، منعت الشرطة منعاً باتاً رفع الأعلام في مدينة القدس، وسمحت

رايات عربية غير دينية خلال الاحتفالات بموسم النبي موسى في موسم سنة ١٩٣٦.

المصدر: مكتبة الكونغرس، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.loc.gov/pictures/item/mpc2010002275/PP/resource/

بنشرها في الحرم فقط. وبعد هروب الحاج أمين، احتُجز علم النبي موسى ووُضع تحت مراقبة السلطات. وبقيت هذه القيود الشديدة حتى آخر سنة جرى فيها الاحتفال بالموسم، وكانت سنة ١٩٤٧.

أشرت، فيما سبق، إلى النظام الاستعماري كسبب رئيسي لاختفاء الأعلام المطرزة، لكنني في الختام، أود أن أشير إلى سبب آخر هو التحول الثقافي في المجتمع العربي الفلسطيني عامة، وفي الثقافة النصّيّة خاصة. فمثلما أشار المؤرخ عامي أيالون في كتابه "قراءة فلسطين"،[١١] شهدت أيام الانتداب شبه ثورة ثقافية، مع انتشار القراءة والكتابة، لكن الموضوع، كما يقول أيالون، ليس مجرد موضوع كَمّي يخص أرقام المتعلمين ونسبتهم، بل هو أيضاً موضوع معنى النص وسياق استخدامه. وليس هناك في رأيي مثال أفضل من علم النبي موسى، الرمز النصّيّ القديم الذي فقد مكانته لمصلحة رموز أُخرى.

ففي موسم النبي موسى في سنة ١٩٢٠، سنة الثورة، ظهر علم آخر إلى جانب الأعلام التقليدية وهو العلم العربي القومي،[١٢] وكان هذا العلم رمزاً تجريدياً، هندسياً، غربياً، من دون أي نص إسلامي، وبلا أي شعار عربي.

وصل العلم العربي إلى فلسطين بعد الاحتلال البريطاني، ومثّل آمال الناشطين القوميين للالتحاق بسورية تحت قيادة الملك فيصل. وعبّر هذا العلم عن صفة الحركة الوطنية الفلسطينية كحركة حديثة، غير تقليدية، مستوحاة من الخطاب العصري الغربي عن الوطنية وتقرير المصير. ويمكن القول إنه تم تبديل علم النبي موسى، وهو علم وحيد وفريد، مكتوب عليه بخيوط ذهبية، وموضوع برعاية عائلة أعيان مقدسية، بالعلم العربي التجريدي الحديث، التابع للشعب كله والمنتَج بالآلاف. وفي الفترة نفسها، فقد النص المقدس الفريد معناه في المجتمع الفلسطيني الحديث، لمصلحة الصحف الواسعة الانتشار، والكتب، والبيانات السياسية، وإلى ما هنالك.

اليوم، اختفت أعلام النبي موسى من الذاكرة الوطنية الفلسطينية، وفي أواخر التسعينيات، عندما حاولت السلطة الفلسطينية إحياء الموسم تحت رعاية فيصل الحسيني، لم يظهر علم النبي موسى المقدس، إذ كان العلم مخبأً في صندوق خشبي في القدس الشرقية، لدى فرد آخر من العائلة، هو سعيد إبراهيم الحسيني الذي رفض رفضاً باتاً عرضه في هذه الاحتفالات التي في رأيه لا علاقة لها بالموسم الأصلي والحقيقي.

أقول إن مسألة اختفاء علم النبي موسى هي رواية لسيطرة استعمارية حاولت التحكم في العلم كي تستفيد منه، وبعدما فشلت، اعتبرته خطراً ومنعت عرضه. لكن في الوقت نفسه، هي رواية لظهور العلم الفلسطيني الذي لا نصّ عربياً عليه، ولاندراس العلم العتيق، وتهميش الأشكال النصّيّة القديمة لمصلحة رموز وكتابات جديدة. ■

المصادر

١ Yair Wallach, "Readings in Conflict: Public Texts in Modern Jerusalem, 1858 - 1948", unpublished doctoral thesis (London: University of London, 2008).

٢ Taufik Canaan, *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine* (London: Luzac & Co, 1927).

٣ كامل جميل العسلي، "موسم النبي موسى في فلسطين: تاريخ الموسم والمقام" (عمّان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٩٠).

٤ Brinkley Morris Messick, *The Calligraphic State: Textual Domination and History in a Muslim Society* (Berkeley: University of California, 1993).

٥ Vera Tamari, "Nabi Musa Banners", in *Ottoman Jerusalem: The Living City, 1517-1917*, edited by Sylvia Auld and Robert Hillenbrand (London: Altajir World of Islam Trust, 2000), pp. 310 – 330.

٦ Awad Eddie Halabi, "The Nabi Musa Festival under British-Ruled Palestine", *International Institute for the Study of Islam in the Modern World (ISIM)*, no. 10 (2002), p. 27, http://works.bepress.com/awad_halabi/8

٧ Imperial War Museum (IWM) film collection, 45. The NEBI-NUSA [sic] *FESTIVALS: Scenes and Incidents en route*, http://www.iwm.org.uk/collections/item/object/1060022598

٨ Wallach, op. cit.

٩ لجنة التحقيق البريطانية، "التقرير الرسمي"، شهادة ٤٤، "هآرتس"، القدس، ٢٨ أيار / مايو ١٩٢٠، ص ٤ (بالعبرية).

١٠ Brian Conaway Gibbs, "Private Papers Collections, GB 165-0117", Oxford: Saint Antony College.

١١ Ami Ayalon, "Reading Palestine: Printing and Literacy, 1900-1948" (Austin: University of Texas Press, 2004.

١٢ خيرية قاسمية، "العلم الفلسطيني" (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٠)، ص ٢٣.

١٣ Emma Aubin-Boltansky, "Prophètes, héros et ancêtres: Les pèlerinages musulmans de Nabi Musa et de Nabi Salih dans la construction nationale palestinienne", unpublished doctoral thesis (Paris: L'école des hautes études en sciences sociales, 2004), pp. 228-229.